ثنائيات الخطاب في نهج البلاغة والأصوات الناطقة فيه

أ.م.د. امل عبد الجبار كريم الشرع م.م. ايمان عبد الحسن علي
جامعة بابل/ كلية الدراسات القرآنية

ثنائيات الخطاب في نهج البلاغة

لا نغالي إذا قلنا بأنَّ نهج البلاغة معينٌ لا ينضب، ولا يمكنُ سبرُ أغواره والإحاطة بما يحويه من قناديل مفعمة بدلالاتٍ متنوعةٍ ؛ لأنه نتاجُ عبقريةٍ فذة بمرجعياتٍ شمولية أنتجت أسمى فنون القول ممثلةً بقرآنٍ مجيد ومأثور نبوي سامٍ.

إذن تتنوعُ موضوعاتُ الخِطَاب في نهج البلاغة تنوعاً كبيراً، ويزخرُ هذا السفر الخالد بمظاهر لا تخفى من الجوانب العلمية والتربوية والأدبية مما يجعله ميداناً لكل الدارسين على مختلف تخصصاتهم، إذ سيجدُ كلٌّ ضالَتَهُ... ولعل ما يهمنا هنا هو البحث في الجوانب الأدبية ؛ إذ مما لا شك فيه أن الباحثَ الأدبي سيجد مجالاً رحباً للأدب السامي المُعَبِر – بصرف النظر عن رأي منشئه ومراميه – بلغةٍ أدبية سمتها الطبع والابتعاد عن التكلف والغموض مما ضَمِنَ لها الديمومة والخلود.

وسنحاول في هذا البحث أن نتعرض لهذه الموضوعات من جهة التخالف والتآلف وهي سمة ظاهرة في لغة نهج البلاغة مما يجعل دراستها مفتاحاً لفهم البنى التي ارتكز عليها المضمون الفكري الذي سيق نهج البلاغة لإيصاله سواء أكان على مستوى الخطبة أم الرسالة.

ولأجل هذا فإننا سوف ننظرُ إليها من جهتين هما: المخالفة التي ستقودنا إلى تفحص الموضوعات المتخالفة ودراستها في صورة ثنائيات متضادة، والموافقة والمشابهة التي سنسعى إلى دراسة الأفكار في إطار صورة موضوعيةٍ متنامية. ونحن إذ نسعى إلى دراستها على هذا الشكل إنما نؤمن بأهمية ذلك على مستوى النص، ومن ثم كان من الضروري تفحصها وبيان أثرها وفاعليتها في بناء النص.

1- الثنائيات المتضادة

يكشفُ الأداءُ التركيبي للخِطَاب في نهج البلاغة بوضوح حضوراً بارزاً لهذه الثنائيات المتقابلة بالتضاد بمعنى إنَّ كلَّ واحدٍ منها يمثلُ ضداً للآخر، فالتوحيد مثلاً ضدّه الشرك والحق ضدُّه الباطل والإيمان ضدُّه الكفر[1]. إذن الدراسة التي تعمل على كشف ((التركيب الضدي للعام والجدلية التي تتخلله، تصبح منطلقاً لوعي نقدي أعمق لا يكتفي بمحاولة فهم الظواهر الفنية من حيث هي الحركة على سطح أفقي، بل يغوص على بنيتها الضدية ليجلو طبيعة الفاعلية التي تتراشقُ فيها))[2]، فالتحليل لهذه الثنائيات لا يكتفي بمجرد فهمها، بل يتعدى ذلك إلى إبراز شبكة العلاقات بينها[3]، فقد تكون هذه العلاقات علاقات نفي وتناقض أو تناغم وتنام[4].

وينتظم نهج البلاغة الكثير من الثنائيات المتضادة منها والمتناغمة إلا أن إمعان النظر يرينا أن التقابل بين المتضادات يتجلّى لنا في ثلاثة متقابلات هي:

أ- التوحيد والشرك.

ب- الإيمان والكفر.

ت- الحق والباطل.

---

(1)- ينظر: المنطق: 48.

(2)- جدلية الخفاء والتجلي – دراسات بنيوية في الشعر: كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1979م: 10.

(3)- دينامية النص – تنظير وانجاز: 183.

(4)- ينظر: جدلية الخفاء والتجلي – دراسات بنيوية في الشعر: 10.

في حين يتجلى التقابل غير الضدي أو ما يمكن أن يسمى التقابل بين المتناغمات في مظهر واحد أساسي يتمثلُ في التقابل بين:

أ- الدنيا والآخرة

ولا يفوتني التنويه إلى أن ثمة ثنائيات متضادة وغير متضادة كانت موجودة في خطاب نهج البلاغة، إلا أننا لم نولها الأهمية ولإمكانية إدراجها تحت الثنائيات المذكورة.

أ – التوحيد والشرك:

يعرف التوحيد بأنه ((العلم الذي يبحثُ فيه عن الله تعالى))[1]، إذ يعبر عن إقرار وحدانية الله تعالى[2] بمعنى إثبات صانع واحد لهذا العالم[3].

وتبعا لذلك يكون هناك نقيض للتوحيد ؛ ألا وهو الشرك الذي يعرّف بأنَّه: نفي الوحدانية عن الله والقول بتعدد الآلهة، فالإقرار بوحدانية الله ونفي الشرك عنه هي من أهم المسائل العقائدية التي تصدّرَتْ التعاليم السماوية على الإطلاق إذ يُعد ((أساساً لسائر التعاليم والمعارف الإلهية التي جَاءَ بها أنبياء الله ورسله))[4]. إذ قال تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِي ﴾[5]، فشعار الأنبياء جميعاً بدءاً من نبي الله آدم (عليه السلام) إلى خاتم الأنبياء محمد ((صلى الله عليه وآله وسلم)) في جميع المواقف قولهم (لا اله إلا الله ولا نعبد إلا إياه).

إذ كان من الطبيعي إن اللَّهَ لم يرسل الرسل عبثاً وإنما لا بُدَّ له من غاية تتمثل في إقرار عقيدة التوحيد التي تتلخصُ في أنْ لا يشرك العبدُ مع الله إلهاً آخر مؤدياً ذلك خوض الأنبياء صراعاً مع أقوامهم من أجل هذه العقيدة.

إذ ((تكتسب جدلية المعقول واللامعقول في الخطاب القرآني صورة صراع بين التوحيد والشرك))[6]؛ وذلك الشرك ينطوي في ذاته على تناقض لقوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[7].

إذ إن القولَ بتعدد الآلهة يؤدي إلى إخلال النظام الكوني وهذا لا يقبله العقل، فتبعاً لذلك يكون التوحيد هو المعقول، والشرك هو اللامعقول، وبذلك يكونُ هدفُ الأنبياء جميعاً هو إقرار المعقول على اللامعقول أي ((نشر خطاب العقل وترجيحه، بل وتسويده على خِطَاب اللاعقل الخطاب المكرّس للشرك))[8].

وفي خِطَاب نهج البلاغة نجد حضوراً بارزاً لهذه العقيدة أي عقيدة التوحيد بوصفها الأصل الأول من أصول الدين الإسلامي، ففي خطابه التوحيدي يُثبتُ أن كلَّ ما في الوجود يدل دلالةً قاطعةً على وحدانية الله فـ((المرء الذي يطلق العنان لعقله من أجل التفكير والتأمل في الموجودات بدءاً من الذرة وانتهاءً بالمجرة، سيصل إلى أن العقلَ السليم سيرفض من تلقاء ذاته أن يكون هذا الكون قد وَجِدَ بطريق الصدفة، أو أنه بعيد عن إدارة إلهٍ خالقٍ عالمٍ حكيم))[9]، وهذا ما نلمسه واضحاً بقوله (عليه السلام): ﴿لو ضربتَ في مذاهب فكرك لتبلغَ غاياته، ما دلتك الدلالة إلا على ان فاطر النملة هو فاطر

---

(1)- التوحيد: محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت 381هـ)، تحقيق: هاشم الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، الطبعة الثامنة، 1423هـ: 20.

(2)- ينظر: التوحيد: مرتضى مطهري، ترجمة: إبراهيم الخزرجي، دار المحجة البيضاء، بيروت، 1998م: 13.

(3)- ينظر: روح الإيمان في نفس الإنسان: محمد الأمين: 23.

(4)- التوحيد والشرك في القرآن الكريم: جعفر السبحاني، دار الولاء، بيروت، الطبعة الثانية، 1425هـ – 2004م: 5.

(5)- الأنبياء / 25.

(6)- تكوين العقل العربي: 136.

(7) الأنبياء / 22

(8)- تكوين العقل العربي: 136.

(9)- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر: راجي أنور هيفا، دار العلوم – لبنان، 1426هـ – 2005م: 397.

النخلة، لدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كل حيّ، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه إلاسواء﴾) [1] فالملاحظ على هذا المقطع من خطاب الإمام علي (عليه السلام) أنه يؤكد على ضرورة إعمال العقل دليلا على مدى عظمة الله وقدرته. يقولُ الإمامُ عليٌّ (عليه السلام) في خطبته التوحيدية: ﴿﴿ الحمدُ لله الذي لم تسبق له حالٌ حالاً، فيكون أولا قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً. كل مسمى بالوحدة غيره قليل وكل عزيز غيره ذليل، وكل قوي غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غير متعلم، وكل قادر غيره بقدر وبعجز وكل سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات ويصمّه كبيرها، ويذهب عنه ما بَعُدَ منها، وكل بصير غيره يعمى عَنْ خفي الألوان ولطيف الأجسام، وكلّ ظاهرٍ غيره باطن وكل باطنٍ غيره ظاهرٍ ﴾) [2].

فالمتأملُ لهذه الخِطبة يجدُ فيها ((أموراً ما كانت تتهيأُ لرجلٍ يعيشُ في محيطٍ مثل محيطه وزمانه، لولا فطرةُ صافية خصّه الله بها، فجاءَ بآراء وفلسفات هي خلاصة تأملٍ عميق في الذات الإلهية))[3]، فالسمة الغالبة في خطاب الإمام علي علي (عليه السلام) هي ضرورة التأكيد على وحدانية الله والاعتقاد بها أولا بعدها يحصل الاطمئنان لهم ثم يستقرُ في قلوبهم: ﴿﴿فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياحَ برحمته ووتد بالصخور ميدان ء﴾﴾ [4]، فهذه العلوم الإلهية المنطوية على عقيدة التوحيد هي ((التعاليم القادرة على إقناع العقل البشري وإرضاء حاجاته الفكرية وإشباع فطرته الإنسانية لأنَّ هذه التعاليم والحقائق التوحيدية التي يريد الإمام أن يُربي الناسَ عليها إنما هي انعكاسٌ صادق وأمين لتعاليم القرآن الكريم))[5].

فتناول الإمام علي (عليه السلام) هذه الأمور الدينية العقائدية في خطابه للَفِت أنظار المخاطبين إلى التأمل في العالم والنظام الذي خلَق الله تعالى به الكون كله لأنَّ الإسلام أصلا يُبنى على دعامة التوحيد ((التوحيد المطلق المجرد الشامل الذي لا يشوبه شكٌ من قريب أو بعيد هو قاعدة التصور التي جاء بها الإسلام وظل يرسخها في الضمير الإنساني ويتتبعُ هواجسه حول هذه الحقيقة حتى يجعلها متينة يقينية راسخة لا يتطرق إليها الشك في أية صورة من الصور))[6].

فثنائية التوحيد والشرك تقوم على علاقة النفي والتناقض، فلم يكتفِ الإمامُ عليٌّ (عليه السلام) في خطابه على الطلب بأن يكون الإنسانُ مُوَحِداً، بل يجب أن يكون مؤمناً بكلّ أمر صادرٍ من السماء إليه.

إذن تتجلى حقيقة الصراع بين التوحيد والشرك في صورة صراع بين المعقول واللامعقول، صراع بين الصلاح والفساد، صراع بين النفع واللانفع، صراع بين الخير والشر.

ب- الإيمان والكفر:

الإيمان هو التصديق والاعتراف – ظاهراً وباطناً – بالتسليم لله سبحانه وتعالى، وضدُّه الكفر الذي هو نكران الاعتراف بالتسليم بالله سبحانه وتعالى.

(1)- نهج البلاغة: 340.

(2)- نهج البلاغة: 102 – 103.

(3)- ينظر: الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر: 398 – 399.

(4)- نهج البلاغة: 18.

(5)- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر: 413.

(6)- الخطاب القرآني للأنبياء والرسل (دراسة فنية): 33.

فبين الإيمان والإسلام علاقة عموم وخصوص، فالإيمان جوهره ولبه فمنذ أن وَجِدَ الإنسان كان الإيمانُ، والكفرُ ضده، فتبعاً لذلك يبقى الصراع دائماً وأبداً بينهما وذلك لأنَّ ((اللهَ تعالى لم يُرِدْ أن يجبرَ الإنسانَ على الإيمان بل أعطاهُ قوة الاختيار))[1]، يكفي ذلك أن هناك سورة من سور القرآن مسماة بأسم(المؤمنون) وأخرى بأسم (الكافرون).

فالإنسان بعدما أوضحَ اللهُ له جميعَ السُبل، فأما أن يكون مؤمناً أو كافراً فإذا آمن حَظي بجزاء أهل الإيمان، وإذا كفر عُدَّ من أهل الكفر وجوزي بجزائهم[2].

فتبعاً لذلك يؤدي الإيمانُ إلى الاطمئنان والصلاح بينما يؤدي الكفر إلى الضيق والبؤس والفساد.

وقد جاء القرآن الكريم مصرِّحاً بوجود علاقة بين الإيمان بالله تعالى والاطمئنان فالإنسان المؤمن يحصل له اطمئنان في قلبه يقول تعالى ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[3] فإذا علمتَ إن الذكر نتيجة للإيمان ومظهرٌ من مظاهره عرفتَ العلاقة بينهما.

وفي خطاب نهج البلاغة نلمس بوضوح وجود ثنائية الإيمان والكفر بوصفها امتداداً طبيعياً لثنائية التوحيد والشرك بوصفهما يقومان على التخالف فضلاً عن قِوَامات أخرى يعتمد عليها كلٌّ منهما.

الإمام علي (عليه السلام) يوضح في خطاب نهج البلاغة الإيمان ونقيضه الكفر، وقد سُئِلَ عن معنى الإيمان فقال: ﴿(الإيمان معرفةُ بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان)﴾ [4]. فلم يقتصر الإيمان على المعرفة القلبية وإنما فسره بأنه يجبُ على الإنسان أن يقرَّ بلسانه حتى يوافق الظاهر الباطن أي اللسان والقلب معا، وبذلك يكون إيمانُه صحيحاً إذا تطابقَ قولُه وعمله.

وقد حلل الإيمان بقوله (عليه السلام): ﴿(الإيمانُ عَلَى أربع دعائِمَ: على الصَّبر، واليقينِ والعَدْلِ، والجهاد)﴾ [5] محاولاً (عليه السلام) أن يُوْصِلَ حقيقةَ الإيمان إلى النفس بقوله: ﴿﴿ إنَّ الإيمانَ يبدو لُمْظَةً في القَلْبِ كُلَّما ازدادَ الإيمانُ ازدادَتِ اللمظَةُ ﴾﴾ [6].

إذن فالإيمانُ معرفةٌ أولا وهو يَدِلُّ على حركية ايجابية يجتلبُ الخير من الخارج بعد خلو الداخل منه ثم هو استقرار وطمأنينة لهذا الشيء المجتلب حتى إذا استقرت الشخصية خَرجَتْ إلى خارج حدودها لتظهر ذلك في مظهر من مظاهر ذلك الاستقرار ممثلاً بإيقاع ذلك على الغير ليكون عملاً.

وعندما قام الإمام بتحليل الإيمان في مقابل هذا حلل الكفر بقوله (عليه السلام): ﴿(الكُفْرُ على أربع دعائم: على التَّعمق والتنازع والزيغ والشقاق)﴾ [7].

وقد قدم الإمام وصفاً رائعاً للإيمان بقوله:(﴿ سبيلُ أبلج المنهاج، أنور السراج فالإيمان يُستدل على الصالحات وبالصالحات يُستدل على الإيمان وبالإيمان يعمرْ العلم وبالعلم يُرهب الموتُ، وبالموت تختم الدنيا، وبالدنيا تحرز الآخرة﴾)[8] فالعلاقة بين الإيمان والصالحات هي علاقة دَوْر إذ يُستدل بأحدهما على الآخر، فالإيمان أساس للأعمال

---

(1)- علم اللغة التوحيدي بين النظرية والتطبيق: محمد علي الحسيني، مؤسسة التوحيد، إيران، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م: 220.

(2)- ينظر: م، ن: 221.

(3)- الرعد / 28.

(4)- نهج البلاغة: 643.

(5) م، ن: 603.

(6)- م، ن: 652.

(7)- نهج البلاغة: 605.

(8)-م، ن: 273 - 274.

الصالحة، وللقيم المُثلى التي دعا الله تعالى إليها، خلافاً لـ(اللاقيم) التي أرادها أهل الكفر أن تسودَ فتؤدي بالإنسان إلى التهلكة.

فالإيمان طريقٌ واضح من تبعه فهو على جادة الصَوَاب، ومَنْ تخلَّف عنه فقد هلك، نلاحظ في هذه الثنائية وحدة الحركة وتطابقها مع الثنائية الأولى (التوحيد والشرك) التي مثلت لدى الإمام (عليه السلام) معرفة بالله ثم إقرار بوحدانيته ثم إظهار ذلك في عمل يحصر فيه العبد صلته وتوكله واعتقاده بالله تبارك وتعالى.

ثم هما بعد ذلك يستندان على أعمال العقل لانَّ التوحيد مدخل لطيف والإيمان ومضة، فغرض الإمام علي (عليه السلام) من تناول ثنائية الإيمان والكفر في خطابه بمنزلة الدعوة الصريحة لأن يضع الإنسان على معرفة تامة بالإيمان وما يترتب عليه والكفر وما يحمله من عواقب، لذلك يبقى الإيمان مناقضاً للكفر محاولاً السيادة عليه ومحاربته. إذ إن الإنسانَ المؤمن يعملُ بكل ما يرضي الله تبارك وتعالى، والابتعاد عما يسخطه.

لهذا دعا الإمامُ علي (عليه السلام) الإنسانَ الرجوعَ إلى الإيمان والاحتكام إليه ؛ لان الإيمان هو ((العقد بالقلب والقول باللسان والعمل بالجوارح فلا يكون المؤمنُ مؤمناً حتى يستكملَ فعلَ كلَّ واجب ويتجنب كل قبيح))[1].

ج- الحق والباطل:

يعرّف الحق بأنه ((عبارة عن الواقعيات))[2]. وينقسم على قسمين: الحق التكويني والمراد به واقعيات عالم الوجود، والحق التشريعي والمراد به القوانين الإلهية التي شرّعتْ من اجل الفرد والجماعة في ضوء المصالح والكفاءات الذاتيّة والاكتسابية[3].

ونقيضُ الحقِّ الباطلُ الذي ((يتمثلُ بالخيالِ والسرابِ الذي لا واقعَ له ولا وجودَ سوى في عالم التصوّر والوهم))[4]، والوهم))[4]، فالباطلُ يتجسدُ بالعرقلة لجميع القوانين المنصوص عليها إلهياً محاولاً التمرد عليها.

إذن فالمقابلةُ بين الحقِّ والباطل هي ((مقابلة بين ضدين لا واسطة بينهما: هما الحق / حقاً والباطل / باطلاً))[5] أي أنّ لا لا وجودَ لطريقٍ وسط بينهما.

وقد بيّنَ القرآنُ الكريم الهدفَ من إرسال الرسل هو إقامة الحق واقهار الباطل، لأن على أساسها يقوم العدل مصرّحاً بذلك الباري عزَّ وجل بقوله ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾[6].

تتجلى ثنائية الحق والباطل في خطاب نهج البلاغة في صورة صراع دائم بين الحق والباطل، فالعلاقة بينهما قائمة على النفي والتناقض، لأن الحق هو الواقع والآخر أي الباطل هو السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً، مصوراً القرآن الكريم هذا الصراع ونتائجه بقوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾[7] فالحق هو الثابت والباقي دائما وأبدا، وأما الباطل فهو الزائل الذي لا بقاء له أو إن فترة بقائه مدة محدودة.

---

(1)- شرح نهج البلاغة ك 9 / 201.

(2)- نفحات الولاية شرح عصري جامع لنهج البلاغة: ناصر مكارم الشيرازي، الطبعة الثانية، 1426هـ: 2 / 126.

(3)- ينظر: م، ن: 2 / 126.

(4)- م، ن: 2 / 126.

(5)- المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1999م: 70.

(6)- ص / من الآية: 26.

(7)- الرعد / من الآية: 17.

ومن هنا فقد اكتسَبتْ الذات الإلهية التي تعد أعظم من كلّ واقع أول اسم وهو الحق، والإنسان كلما اقترَبَ من الله فهو على الحق وكلما ابتعدَ عنه فهو على الباطل[1] إذ كثيراً ما تعرّض الإمام لهذه الثنائية ملاحِظاً إن الناسَ قد أخذت تبتعد عن طريق الحق وتروج الباطل خدمة لمصالحها لذلك يخاطب الناس (عليه السلام) في عدم التسرع ورمي الناس باطلاً ﴿(أيها الناسُ مَنْ عَرفَ مِنْ أَخيه وَثيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَريقٍ فَلا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أقاويلَ الرّجالِ. أما إنَّهُ قد يرمي الرَّامي، وتُخْطِيءُ السّهَامُ، ويحبكُ الكَلامُ، وبَاطِلُ ذلك يَبُورُ، واللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أما إنَّهُ لَيْسَ بينَ الحَقِّ والبَاطِل إلا أربع أصابع﴾﴾[2]. وقد سُئِلَ الإمامُ عن معنى قوله هذا فقالَ: ﴿(الباطلُ أنْ تَقُولَ سَمِعْتُ، والحَقُّ أنْ تَقُولَ رأيْتُ)﴾ [3]، فهذا يدل دلالة واضحة على ان ما تسمعه يحتاج إلى الدليل والشاهد، أما ما تراه فلا يحتاج إلى أي شاهد أو دليل لأنه هو الدليل عينه.

فدعوةُ الإمام علي (عليه السلام) صريحةٌ إلى تثبيت أسس الحق وهدّ الباطل من أساسه كانَتْ من واجبه الذي وكلّه الله إليه لكونه خليفة المسلمين يقول (عليه السلام): ﴿(اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ أنَّهُ لم يَكُن الذي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً في سُلْطانٍ، وَلاَ التماسَ شيءٍ مِنْ فُضُول الحُطَامِ، ولكن لِنَرِدَ المَعالِمَ مِنْ دِينكَ، ونظْهِرَ الإصلاحَ في بلادِكَ، فيأمَنَ المظلومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وتُقَامَ المُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ﴾ ﴾ [4] فمهمة الإمام هي تصحيح الانحراف في المجتمع وإعلاء كلمة الحق وإزهاق الباطل، إذ يرجع الإمام السبب في عدم أخذ الحق مكانه الطبيعي، وذلك لتخاذل بعضهم على نصرته بقوله: ﴿(لَوْ لَمْ تتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْر الحَقّ وَلَمْ تَهِنُوا عن تَوْهين البَاطِل، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ وَلَمْ يَقْومَنْ قَوِيَ عَلَيْكُم لِكنَّكُمْ تِهْتُم مَتَاه بَنِي إسرائِيلَ. وَلَعمري، لَيُضعَّفَنَّ لكُم التّيهُ مِنْ بَعدِي إضعافاً، بِمَا خَلَّفتُمُ الحقَّ وراءَ ظُهُورِكُمْ﴾) [5] فكان في خطابه (عليه السلام) كثيراً ما يعظهم بسلوك طريق الهدى وإن قَلَّ سالكوه، كما يقول: ﴿(أيَّهَا النَّاسُ لا تَستوحِشُوا في طرِيقِ الهُدَى لِقِلَّةِ أهلِهِ﴾)[6]، فطريق الحق هو الطريق الوحيد الذي مَنْ تبعه نَجى، ومن تخلَّفَ عنه هلك إذ يقول عليه السلام ﴿(أيُّهَا النَّاسُ النَّاسُ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الوَاضِحَ وَرَدَ الماءَ ومَنْ خَالَفَ وَقَع في التيه !﴾) [7].

فتأكيد الإمام على ضرورة عدم الاستيحاش في الحق لقلة سالكيه والاستئناس بالباطل لكثرة سالكيه لهو دليل واضح على كثرة أتباع الباطل وقلة أتباع الحقّ، إلا أن الكثرة ليستْ هي الدليل فحكومة الباطل سرعان ما تتلاشى لأنها تستند على أسس واهية.

وقد خاطب الإمام احد الصحابة بقوله﴿(لا يُؤنِسنَّكَ إلا الحق ولا يُوحِشَنَّكَ الا الباطل﴾) [8] إذ لا أنيس بعد الحق، الحق، فلكلٍ من ((الحق والباطل أنصاره ومؤيدوه الذي يدافعون عنه))[9]، فيكون غرض الإمام علي (عليه السلام) من إيراد إيراد ثنائية الحق والباطل ما هو إلا وضع الأمور مواضعها بسبب كثرة البصائر الزائغة عن الحق.

فحقيقة الصراع بين الحق والباطل هو صراع بين الاستقرار المتأتي من إصابة الواقع والاضطراب واللاستقرار المتمثل في اللهاث خلف سراب.

---

(1)- ينظر: نفحات الولاية: 1 / 283.

(2)- نهج البلاغة: 249.

(3)- م، ن: 249.

(4)- م.ن: 238.

(5)- م، ن: 303.

(6)- م، ن: 402.

(7)- م، ن: 402.

(8)- نهج البلاغة: 237.

(9)- روائع البيان في خطاب الإمام الجوانب البلاغية واللغوية في بيان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: 182.

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ العلاقة وثيقةٌ بين الحقِّ والإيمان والتوحيد، لأنَّ في كلِّ ذلك سعي نحو الاستقرار وهو المبدأ الذي يسعى الإمامُ بالمخاطَب إلى بلوغه إذ بإتباع كلام الإمام وهو المحرك الدافع وراء الخِطَاب في هذه الثنائيات تتحقق سعادة الدارين التي من لوازمها الاطمئنان والاستقرار.

نستنتج من كل ما سبق أن الإمام كان كثيراً ما يعمد إلى ذكر الشيء ونقيضه، فلم يكتفِ بذكر الشيء فقط ؛ وذلك لأن التناقض والتقابل هما ديمومة الحياة فالإمام علي (عليه السلام) كان خبيراً بالواقع وعلاقات الناس فيما بينهم، فالبنية الضدية في الثنائيات تشحن الخطاب في نهج البلاغة بالحركة التي ((تستوعب في صلبها مفارقات الحياة وكل ما فيه يوحي بحركة الجدل التي تعتمل في الواقع))[1]. فالمخاطب لم يعِ وعياً كاملاً بالشيء، إلاَّ قُدّم له نقيضه، مثلما لم يعِ بالجمال إلا إذا قدّمنا له الوجه الآخر للحقيقة إلا وهو القبح[2].

2- الثنائيات المتناغمة

أ- الدنيا والآخرة:

تشكل ثنائية الدنيا والآخرة المتقابلة ثنائية متنامية بمعنى أن الدنيا لم تناقض الآخرة ولا الآخرة تحاول أن تنفيَ الدنيا بل كلٌ منهما تكون مكملةً للأخرى، فالعلاقة بينهما هي علاقة تنام وتناغم.

إن الدنيا – كما هو معروف – في جميع الأديان السماوية هي ((دار طارئة متبدلة جعلت ليتزود منها الإنسان ويكسب فيها السموَ والكمالَ والمعرفةَ التي تحلق به إلى عالم الخلود))[3]. فعندما أرادَ اللهُ تعالى أن يختبرَ الناسَ جعلَ لهم الدنيا وسيلةً لاختبارهم وما عليهم من تأدية الواجبات، فهي دار ممر تؤدي إلى الدار الباقية دار المقام والجزاء والخلود[4]، فالله تعالى يبتلي عباده بشتى أنواع البلاء من شأنها تربية الإنسان وصقل شخصيته.

ففي خطاب نهج البلاغة نجد الإمام علياً (عليه السلام) يستعمل هذه الثنائية من نوع المقابلة بين النقص والكمال، علماً بأن الإمامَ قد يأتي بهما متلازمتين. أو منفردتين تبعاً لما يتطلبه سياق الخطاب.

فالمتأمل للخطاب في نهج البلاغة يرى أن هذه الثنائية تشكل منطقة اشتغال صاحب الخطاب بمعنى أنها مهيمنة فيه، فتتعدد مواقف الإمام علي (عليه السلام) من الدنيا فمرة يقف منها موقفاً سلبياً، وقد يكون موقفه منها ايجابياً، وقد يقف في بعض الحالات موازناً بينها وبين الآخرة .

فقد وصف الإمام الدنيا لمخاطَبيه محذراً إياهم منها بقوله: ﴿(فإنَّ الدُّنيا رنق مَشرَبُهَا، رَدِغٌ مَشرَعُهَا، يونق مَنظَرُهَا، ويوبق مَخْبَرُهَا. غُرورٌ حَائِلٌ وَضَوءٌ آفِلٌ، وَظِلٌّ زَائِلٌ، وَسِنادٌ مَائِلٌ، حتَّى إذا أنِسَ نافِرُها، واطمَأنَّ ناكِرُهَا، قمصت بِأرجُلِهَا وقنصت بِأحبلِهَا واقصدت بِأسهُمِهَا، واعلقت المرءَ أوهَاقَ المنيَّة قَائِدةً لَهُ إلى ضَنك المَضْجَعِ وَوَحْشة المَرجع ومعاينة المَحَلِّ﴾)[5] إذ يؤكدُ الإمامُ في خطابه على حقيقة الدنيا داعياً الإنسانَ أن يكون على حذرٍ منها وأن لا يغتر بمغرياتها﴿﴿أُحَذِّرُكُم الدنيا، فإنَّها حُلوَةٌ خَضِرة، حُفَّتْ بالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبتْ بالعَاجِلَة، وَرَاقَت بالقَليل، وتحلّتْ بالآمالِ وَتَزَيَّنَتْ بالغُرُور﴾)[6] إذ كل ذلك قائم على اختبار الناس وتمحيصهم، وكان يدعو في خطابه إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في

(1)- بنية القصيدة في شعر عز الدين المناصرة: فيصل صالح القصيدي، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، 2005م: 146. 146.

(2)- ينظر: تذوق النص الأدبي جماليات الأداء الفني: 167.

(3)- نفحات الولاية: 2 / 122.

(4)- ينظر: خطب نهج البلاغة دراسة توصيلية: 152.

(5)- نهج البلاغة: 122.

(6)- م، ن: 205 – 206.

الآخرة من خلال الموازنة بينهما بقوله: ﴿(إنما الدُّنْيا دارُ مَجَازٍ، والآخرةُ دارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا من ممركم لمقرّكم))[1] فهي دعوة صريحة ليتزود الإنسان من الدنيا الأعمال الصالحة ((دعوة إلى مواجهة الحياة بواقعية وصدق))[2]، إذ لا يجد الإنسان العاقل في هذه الدنيا إلا عبوراً نحو الآخرة بل انه عبور سريع لا يترك العابر فيه أثراً إلاَّ عمله.

ونجدُ للإمام موقفاً ايجابياً من الدنيا في قوله: ﴿﴿ إن الدُّنيا دارُ صدقٍ لِمَنْ صَدَقَها، ودارُ عافيةٍ لمن فَهِمَ عنها، وَدَارُ غِنيٍ لمن تزود منها، ودارُ موعظةٍ لمن أتَّعَظَ بِهَا مَسْجِدُ أحبَّاء الله وَمُصَلَّى مَلائِكَةِ اللهِ وَمَهْبِطُ وحي الله، وَمَتْجَرُ أولياءِ الله اكتَسَبُوا فيها الرّحْمَةَ وَرَبِحُوا فيها الجنَّة﴾﴾ [3].

ويتوصل الإمام علي (عليه السلام) في خطابه إلى نتيجة مؤداها هي ان الدُّنيا في واقع الأمر لا تكذب على الإنسان ولا تغره فله فيها من المواعظ تكفي ليراها الإنسان على حقيقتها.

فالإنسان هو المغتر بها والمخدوع بأباطيلها والمتغافل عنها فيقول عليه السلام﴿(وَحَقّاً اقُولُ ما الدُّنيا غرّتكَ، ولكن بها اغتررتَ، ولقد كَاشَفَتكَ العِظَات، وآذنتكَ على سَوَاءٍ، وَلَهِيَ بما تَعِدُكَ من نزول البلاءِ بجسمِكَ، والنقص في قُوَّتك، اصدقُ واوفَى من أن تكذبكَ أو تُغرّك ﴾) [4] فعلى الإنسان أن يتعظَ منها ولا ينقادُ لها وعليه أن يتذكر مواقفَ الآخرة وما وما سيجد المرء من حساب، فيكون اليوم الآخر بالنسبة للإنسان الصالح يوماً مضيئاً وبالنسبة لغيره مظلماً بسبب أعماله في الدنيا.

إذن نستنتجُ مما سبق أنَّ الدُّنيا في خِطَاب الإمام علي (عليه السلام) إما أنْ تكون متحركة أو ساكنة (جامدة) وهذا ما يوضحه الشكل الآتي:

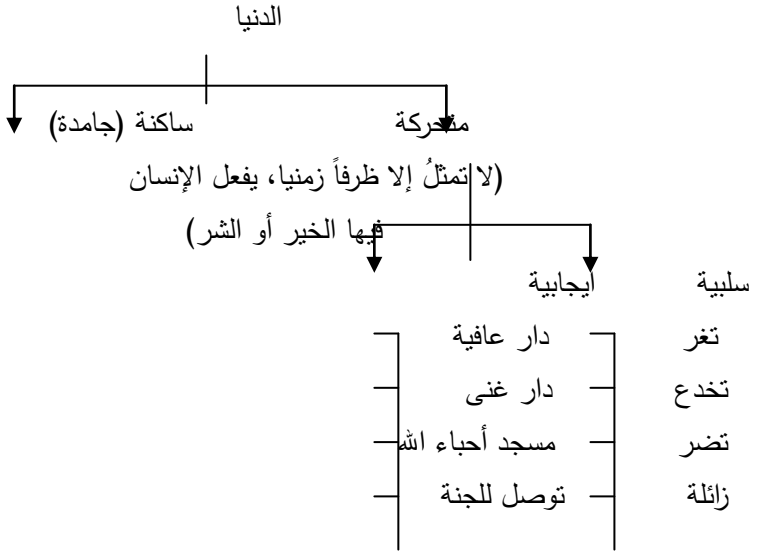

فإذا علمنا أنَّ محاورَ الموضوع هي المخاطِب والمخاطَب والدنيا، عرفنا أن المخاطِب الإمام علي (عليه السلام) هو العنصر الأكثر حركة نحو الدُّنيا السلبية.

الأصوات الناطقة في نهج البلاغة

(1)- نهج البلاغة: 404.

(2)- حركة التاريخ عند الإمام علي: 47.

(3)- نهج البلاغة: 626.

(4)- نهج البلاغة: 435 – 436.

ان من المظان المهمة في الخطاب هو الاصوات الناطقة تتبعثُ الأصوات الناطقة في الخِطَاب انبعاثاً منسجماً على الرغم من اختلافها، فالصوت يُعرَّف بأنَّه ((أثرٌ سمعيٌ يصدرُ طواعيةً واختياراً عن تلك الأعضاء المسماة تجاوزاً أعضاء النطق))[1]، إلا أن هذه الأصوات التي يطلقها الإنسانُ العادي ليس لها أي معنى إلا إذا حُدّدَ هدفُها، فليس كلُّ صوتٍ يطلقه الإنسان له أهمية، فالصوت المنبعث يجب أن يكون معبراً عن الغرض المقصود ممثلاً عن نفسية صاحبه.

إذن فالصوت الموجَه إلى مخاطَب معين أو مجموعة مخاطبين يكون له معنى هو المقصود سواء أكان هذا الصوت نداء أي إطلاق الصوت عالياً أم مناجاةً بإطلاقة خفياً تكون في طبيعة الحال قوى محركة للخِطَاب ؛ لأن لكلِّ صوتٍ من هذه الأصوات أثره وفاعليته.

وفي خطاب نهج البلاغة نلاحظ أصواناً مختلفة منبعثة عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) تعبر عن الشخصية التي اجتمعتْ فيها كلُّ هذه الأصوات المتنوعة، وعلى الرغم من تعددها إلا أنها يمكن ربطها برابطٍ خفي، إذ لم ينطق الإمام علي (عليه السلام) بصوت واحد كأن يكون الصوت الواعظ أو الحكيم أو الفيلسوف أو الحاكم أو القائد وإنما اجتمعت جميع هذه الأصوات في خطاب نهج البلاغة فخرجَت بصوتٍ واحد، معبرة عن الغاية الأسمى وهي إصلاح الإنسان والدعوة إلى خلاصه عن كلّ ما يُقَلقلكَ من شأنه لذا أفردنا لها مبحثا خاصا في هذا البحث لأهميته ومن هذه الأصوات:.

1- صوت الحكيم

يشغل صوتُ الحكيم في خِطَاب نهج البلاغة حيزاً كبيراً ؛ وذلك بسبب ما لِحكم الإمام علي (عليه السلام) من أهمية لأن الحكمة لونٌ من ألوان الصياغة الأدبية المعروفة إذ هي ((عبرةٌ مستخرجة من جملة من الواقع ذات النتائج المتشابهة تغدو مقدماتها ذات دلالة على عواقبها))[2]، فهي خلاصة نظرية في الأدب تقوم أساساً على التبصر بشؤون الحياة وصياغتها بشكل أدبي يمزج بين حقيقتهِ مع واقعيته[3].

إذ تعد الحِكَمةُ أكثر الأنواع الأدبية المستوعبة للفنية الجمالية على الرغم من أنها مزيجٌ من الفكر والعاطفة من ((موضوعية وذاتية ؛ موضوعية في أساس الفكرة ومنطلقها من الوجود الواقعي المحسوس، وذاتية في إخراجها وتلوينها بألوان الخيال))[4].

إذن لم تصدر الحكمة عن جميع الناس بمعنى لا يتيسر لأي إنسان أن يكون حكيماً ؛ وإنما تصدر عن أُناس لهم خبرة في الحياة والتبصر في شؤونها يقومون باختيار معناها من الواقع، ثم صياغتها بأُسلوب فني يضمن لهم الاستمرارية والبقاء.

وبالنسبة لشكل الحكمة فقد يأتي شعراً أو نثراً، فيأتي عبارة عن بيت أو مجموعة من الأبيات أو يأتي ضمن الفقرة النثرية، فهي في أساسها ((نظرة وخبرة، فقد حَتمَ عليها كونها كذلك، أن يَلجَ جميع الأشكال الأدبية الأخرى بلا استثناء، فقرة أو فقرات بيتاً أو أبياتاً))[5].

---

(1)- علم الأصوات: كمال بشير، دار غريب، القاهرة، 2000م: 119.

(2)- الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم من عصر علي بن أبي طالب إلى عصر ابن خلدون: كمال اليازجي، دار الجيل، بيروت، 1986م:

(3)- ينظر: الفن والأدب بحث جمالي في الأنواع والمدارس الأدبية والفنية: ميشال عاصي، المكتب التجاري، بيروت، 1970م: 112 – 113.

(4)- م، ن: 112.

(5)- م , ن: 118.

أما الغرض من الحكمة هو التعليم والإرشاد والنصيحة فهي تعملُ على مكافحة الجهل[1]، ففيها ((حياة القلب))[2]، وقد عُبِّر عنها بأنها ((لا تشيخ والمعرفة لا تهدم ولا تموت طالما تحتوي عناصرَ البقاء الدائم والحياة الحقَّة))[3]، لهذا تمثل أقوال الحكماء الذين خبروا الحياة واستخلصوا العبرة منها ((ينبوع لا ينضب عطاؤه عندها يسند المرءُ ليستريح))[4]، فالحكمة سراج يضيء للإنسان طريقه كلما استبد به ألم الحياة، وعليه فانَّ حكمَ الإمام علي (عليه السلام) شاملةٌ لكلِّ معاني الحياة، لا تغفل عن أية قيمة من قيمها ؛ لا سيما ان الإمامَ علياً (عليه السلام) قد تَمرَّسَ بالآفات وعاشَ معها واقعاً فكان خبيراً بأحداث زمانه لهذا جاءَت حِكَمُهُ متنوعة المضامين تتناولُ مختلفَ مواضيع الحياة العامة.

وفي هذا ((ذكروا أنّ ضرار بن ضمرة الضبابي[5] دخلَ على معاوية بن أبي سفيان وهو بالموسم فقال له: صِفْ عليّاً قال: أو تعفني؟ قال: لا بد أنْ تصفه لي، قال: كانَ والله أميرُ المؤمنين عليه السلام طويل المدى، شديد القوى، كثير الفكرة، غزير العبرة، يقول فصلاً ويحكمُ عدلاً يتفجرُ العلمُ من جوانبه، وتنطلقُ الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدُّنيا وزهرتها، ويأنسُ بالليل ووحشته، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا دعوناه ويعطينا إذا سَألناه، ونحن والله لا نكلمه لهيبته، ولا ندنو منه تعظيماً له، فان تبسمَ فعن غير أشر ولا اختيال، وإن نطقَ فعن الحكمة وفصل الخِطاب))[6].

فشكل صوتُ الحكيم أحد الأصوات المعبرة والهادفة في خِطَاب نهج البلاغة، إذ ينبعثُ ممثلاً الجانب الإنساني بكل معانيه حتى عُدَّتْ حِكَمُهُ من ((جوامع الكلم، وهي تختص بميزات أظهرها أنَّها تخفقُ بالحياة وتنعمُ بدفء التجربة، فهي لم تنقطع يوماً عن شخصية صاحبها، تمثلُ تجربة وقَعَتْ له، أو حادثة اتصلَتْ به))[7].

فجاءَ صوتُ الحكيم للإمام علي (عليه السلام) رافضاً لكلّ مبادئ الجاهلية المرتكزة أساساً على المبالغة وطلب الثأر والظلم والعدوان، وداعياً إلى الأخلاق التي يريدها الإسلام التي تقومُ على العفو والعدل والمحبة ورعاية الحقوق ومحاولة غرسها في نفوس الناس، لذلك كان صوتُه ((معالجةً جذريةً للأمور مبنية على نظر فلسفي عميق وعلى نفاذ إلى كنه الحياة الاجتماعية وفهم لحقيقتها وتطوراتها))[8]. ففي قوله (عليه السلام): ﴿(أغض على القذى والألم ترضَ أبداً﴾)[9] هي دعوة صريحة لأن يعيش الإنسانُ الحياةَ الطبيعية مخاطباً الفرد والمراد به الجماعة دلالة على أن الرضا ينبع من داخل الإنسان فمَنْ اقتنعَ بما قَسمَ اللهُ له فسيطمئن قلبه.

وفي قوله (عليه السلام): ﴿(قيمة كلّ امرئٍ ما يُحسنه)) [10] فنجده يخاطبُ الإنسان بصورة غير مباشرة إلى أن قيمة الإنسان بإنسانيته، قيمته بنفسه، وقدره فيما يقدر عليه ؛ إذ إن قيمة الإنسان تتجلى بأعماله وتواضعه، وليس بقيمة

---

(1)- ينظر: في رحاب نهج البلاغة: 131.

(2)- الحكمة عند الإمام علي في نهجه: جوادي آملي، دار الهادي، بيروت، 1992م: 84.

(3)- أدب الحكمة في وادي الرافدين: صلاح سلمان الجبوري، مراجعة: فاضل عبد الواحد علي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000م: 273.

(4)- م، ن: 273.

(5)- ضرار بن ضمرة الضبابي: احد أصحاب الإمام علي (عليه السلام) كان فصيح المقال ويمتاز بطلاقة اللسان: ينظر: ينظر: خصائص الأئمة: الشريف الرضي (ت 406هـ)، تحقيق: محمد هادي الأميني، منشورات مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، إيران، 1406هـ: هامش 71.

(6)- خصائص الأئمة: 70 – 71.

(7)- شرح نهج البلاغة: محمد عبده: 13.

(8)- م، ن: 13.

(9)- نهج البلاغة: 642.

(10)- م، ن: 613

المال والجاه والسلطة لهذا جاء صوتُه ليسقط جميع القيم المزيفة محاولاً تعريّة الإنسان منها، مضيفاً إليه قيمة من ذاته لذاته وليست مستمدة من الخارج.

يتجلى لنا في صوته هذا ثنائية (اللبس والتعرّي)، مظهراً الجانب الإنساني عند الإمام علي (عليه السلام) بكل معانيه ؛ لأنه أحسَّ أن هناك فروقاً اجتماعية[1] تنهض على أسس ليست صحيحة، هذه الحكمة التي عَبَّر عنها الجاحظ بقوله: ((فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافيةً كافية ومجزئة مغنية ؛ بل لوجدناها فاضلةً عن الكفاية وغير مقصِّرة عن الغاية))[2]، وعبر عنها ابن سنان بقوله ((إن هذه الألفاظ على غاية الإيجاز وإيضاح المعنى، وظهور حسنها يغني عن وصفه))[3] ولأن الإمام علياً (عليه السلام) سيد البلغاء والمتكلمين لا يقول للإنسان ناصحاً بتعبير بتعبير مباشر تجنب الشر وابتعد عنه بل ((يلوذ دائماً بظلال البلاغة مصوراً متأنقاً يعنيه ما يعنيه من خلود ((ام اللغات)) ولسان أهل الجنة))[4] فنجده يقول ناصحاً ومنبهاً للإنسان في زمن الفتنة بقوله: ﴿(كُنْ في الفتنة كابن اللَّبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب﴾)[5]، والمراد بان أللبون ولد الناقة الذي استكملَ السنة الثانية فلم يكن ظهره قوياً ليركب ولا بأنثى حتى يكون ذا ضرع فيحلب[6]، فالمراد من الإنسان في هذا الخطاب الموجه له في حالة الفتنة أن يكون كابن اللبون من حيث الضعف والخمول، يجعل نفسه بعيداً عن الشر.

إذن ترددَ صوت الحكيم في خطاب نهج البلاغة كثيراً فكان مطابقاً لشخصيته، تلك الشخصية التي تدعو لأن يكون الإنسان إنساناً بأخلاقه، لا بقيمٍ مزيفة، والتي لم تقتصر على جانب معين من جوانب الحياة وإنما شملتها جميعاً فإذا كانتْ الحكمة المصاغة شعراً أوسع انتشاراً بين الناس كما وجدناها لدى المتنبي وغيره فان ((ومضات الإمام علي (عليه السلام) أكثر عمقاً وبلاغه مما نجده لدى الشعراء العرب))[7].

صوت الفيلسوف:

لقد شكل صوتُ الفيلسوف في خِطَاب نهج البلاغة حضوراً كبيراً ؛ إذ إن الإمام علياً (عليه السلام) كثيراً ما كان يتناول مسائل فلسفية تتعلق بفكرة توحيد الله خالق الوجود ومسائل الطبيعة وغيرها.

فالإمامُ علي في خطاب نهج البلاغة فيلسوف يحملُ نظرة كونية تمتاز بالسعة والشمول فضلاً عن امتلاكه نظرة عقلية واستدلالاً منطقياً[8]؛ لأنه كان محيطاً بكل شؤون الوجود من أمور اجتماعية وعلمية وطبيعية وصولاً إلى أسمى قضية ألا وهي ((قضية الألوهية والتوحيد))[9].

إلا أن فلسفة الإمام علي (عليه السلام) لم تأتِ بأسلوب جاف وإنما صاغَهَا الإمام بلغةٍ أدبية رائعة وأسلوب راق ينبئ عن قدرةٍ عالية في الأداء كقوله عليه السلام: ﴿(انشأ الخلقَ إنشاءً وابتدأه ابتداءً بلا روية أجالَهَا، ولا تجربة استفادها، ولا حركة احدثها، ولا همامة نفس اضطربَ فيها، احالَ الأشياء لاوقاتها ولأمَ بين مختلفاتها وغرز غرائزها، والزمها اشباحها

(1)- ينظر: في النقد والأدب مقدمات جمالية: 118.

(2)- البيان والتبيين: 1 / 83.

(3)- سر الفصاحة: 403.

(4)- الصورة الفنية في كلام الإمام علي: 163.

(5)- نهج البلاغة: 599.

(6)- ينظر: روائع البيان في خطاب الإمام: 146.

(7)- الإمام علي بن أبي طالب إنسان المستقبل: 132.

(8)- ينظر: الإمام علي (ع): 141.

(9)- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر: 499.

عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها عارفاً بقرائنها واحنائها﴾﴾[1]، فالملاحظ على هذا المقطع من الخطبة أنه جَاء باحثاً عن حقائق الأشياء وأسباب حدوثها مشكلاً هذا عند المخاطَب ((إحساساً بالجمال وشعوراً بالجلال))[2] بأسلوب لم يشعر معه المخاطَب أو القارئ بالملل، بسبب ما توافرَ فيها من عناصر جمالية تجذب المتأمل.

يقول الإمام عليٌّ (عليه السلام) في خطابه: (﴿ سلوني قبل أن تفقدوني ﴾)[3]، طالباً من الناس سؤاله أي سؤال هو دليل على أنه خِطابٌ عام غير محدد لنوع المسؤول عنه فهو بلا شك سَيّدُ الفلاسفة وإمامُ الحكماء، لأنه كان محيطاً بجميع العلوم، فإذا كان ((الفيلسوف هو الذي يعرفُ العالم ويعرّفه للعالم فلسنا نعرفُ أحداً أغزر علماً وأعمق غوراً وأصوب رأياً وأبعد حسناً))[4] من الإمام علي (عليه السلام) موضحِاً الحقائق للناس مراعياً فيه مستويات عقولهم، فجاء صوته الفلسفي مُفَصِلاً لكل شيء حتى لا يُعجز عن فهمه، مُقَدمَاً بأسلوب علمي أدبي لكي يكون خطابه مقنعاً ومؤثراً في الوقت نفسه.

الخاتمه

يرتكزُ الخِطَابُ في الثقافة العربية أساساً على وجوب حضور كلٍّ من المخاطِب والمخاطَب والخِطَاب، وان أيَّ قصور في معرفة هذه العناصر يؤدي إلى قصور في فهم الخِطَاب.

يوجه الإمامُ علي (عليه السلام) خِطَابَه إلى الكيان الإنساني بشكلٍ عام، لأنه يُخاطبُ العقلَ والعاطفةَ وعندما يتجه هذا الاتجاه فلا بُدَّ له من ترك الأثر في الذات الإنسانية وتحقيقه لأهدافه، إذ كان لغايتي الجمال المتمثلتين في المنفعة واللذة حضورهما البيّن في خطابات الإمام علي (عليه السلام) من دون تفريط بأيٍّ منهما.

كَنت خِطاباتُ الإمام علي (عليه السلام) انعكاساً للواقع الإنساني في تلك الحقبة من تاريخ الإنسانية ولما كانَ المجتمعُ يعيشُ حالةً من الصراع بين القوى: قوى الخير والشر، والحق والباطل، والعدل والجور كثُر تناول الإمام لهذه القوى في صورة ثنائيات متضادة وأخرى متناغمة.

تعددت الأصواتُ الناطقة في خِطَابات الإمام (عليه السلام) بوحي من المقامات المتعددة للإمام من حيث كونه خليفةً وإماماً وحكيماً وقائداً وأباً، وغير ذلك مما أضفى صفة الشمول على خِطابه.

روافد البحث

1. القرآن الكريم
2. أدب الحكمة في وادي الرافدين: صلاح سلمان الجبوري، مراجعة: فاضل عبد الواحد علي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000م.
3. الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم من عصر علي بن أبي طالب إلى عصر أبن خلدون: كمال اليازجي، دار الجيل، بيروت، 1986م.
4. الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر: راجي أنور هيفا، دار العلوم، لبنان، 2005م.
5. بنية القصيدة في شعر عز الدين المناصرة: فيصل صالح القصيدي، دار مجدلاوي، عمان، 2005م.

(1)- نهج البلاغة: 18.

(2)- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر: 536.

(3)- نهج البلاغة:

(4)- م، ن: 657.

6. البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة، 1985م.
7. تذوق النص الأدبي – جماليات الأداء الفني: رجاء عيد، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، قطر، 1994م.
8. تكوين العقل العربي: محمد عابد الجابري، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثامنة، 2002م.
9. التوحيد: محمد بن علي بن حسين بن بابويه القمي (ت 381هـ) تحقيق: هاشم الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، الطبعة الثامنة، 1423هـ.
10. التوحيد: مرتضى مطهري، ترجمة: إبراهيم الخزرجي، دار المحجة البيضاء، بيروت، 1998م.
11. التوحيد والشرك في القرآن الكريم: جعفر السبحاني، دار الولاء، بيروت، الطبعة الثانية، 2004م.
12. جدلية الخفاء والتجلي – دراسات بنيوية في الشعر: كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.
13. حركة التاريخ عند الإمام علي (عليه السلام): محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية، بيروت، 1997م.
14. الحكمة عند الإمام علي في نهجه: جوادي آملي، دار الهادي، بيروت، 1992م.
15. خصائص الأئمة: الشريف الرضي (ت 406هـ)، تحقيق: محمد هادي الأميني، منشورات مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، إيران، 1406هـ
16. خطب نهج البلاغة – دراسة توصيلية (رسالة ماجستير): فاتن فاضل العبيدي، كلية التربية، جامعة بابل، 2005م.
17. روائع البيان في خطاب الإمام – الجوانب البلاغية واللغوية في بيان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رمضان عبد الهادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2002م.
18. سر الفصاحة: ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ)، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، الأزهر، 1969م.
19. شرح نهج البلاغة: عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي (ت 656هـ)، تقديم وتعليق: حسين الاعلمي، مؤسسة الاعلمي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2004م.
20. علم الأصوات: كمال بشر، دار غريب، القاهرة، 2000م.
21. علم اللغة التوحيدي بين النظرية والتطبيق: محمد علي الحسيني، مؤسسة التوحيد، إيران، 1997م.
22. الفن والأدب بحث جمالي في الأنواع والمدارس الأدبية والفنية: ميشال عاصي، المكتب التجاري، بيروت، الطبعة الثانية، 1970م.
23. في رحاب نهج البلاغة: مرتضى مطهري، الدار الإسلامية، لبنان، الطبعة الثانية، 1424هـ – 2003م.
24. المفاهيم معالم – نحو تأويل واقعي: محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1999م.
25. المنطق: محمد رضا المظفر، مؤسسة إشارات، دار العلم، قم
26. نفحات الولاية – شرح عصري جامع لنهج البلاغة: ناصر مكارم الشيرازي، الطبعة الثانية، 1426هـ.
27. نهج البلاغة: صبحي الصالح، منشورات أنوار الهدى، قم، إيران، مطبعة رسول، 1426هـ.